الدكتورة: خيرة بورنان السنة الثانية: قسم الفلسفة

محاضرات مقياس:

فلسفة التأويل في العصور الوسطى

المحاضرة رقم: 08

إشكالية تأويل النَّص الديني
(في المرجعية الفكرية الإسلامية)

تمهيد:

الثابت أن التأويل قبل أن يُقعد له نظريا وخاصة ضمن التأويليات العربية والإسلامية المعاصرة، قد حظي بمجال تداولي واسع النطاق، وذلك لارتباطه بالخطاب القرآني المعجز، ومن أهم هذه المجالات نذكر: علم الكلام والتصوف.

1- **التأويل عند علماء الكلام**

من الثابت تاريخيا أن أحد الأسباب الرئيسة لنشأة علم الكلام الإسلامي، هو القرآن الكريم وما يتضمنه من آيات بعضها يشكل نطاق القطعي والمحكم، ويشكل بعضها الآخر نطاق المتشابه والظني، وهي مبعث النزوع إلى التأويل، الذي كان ولايزال محركا جوهريا للجدل أي التأويل والتأويل المضاد، وتبرير الإيديولوجيات، حسب اتساع أو ضيق نطاق المحكم والمتشابه.

ويميز الدارسون في علم الكلام بين اتجاهين؛ الأول منهما يأخذ بحرفية النَّص مسيجا إيَّاه بظاهر لا يتعداه، ضاربا صفحا عن إمكانيات دلالية أخرى، ومن هؤلاء المجسمة والمشبهة، والجبرية[1]؛ أما الاتجاه الثاني، فوجد في عبارة علي رضي الله« القرآن حمَّال أوجه»، وراح يتعمق في باطن النَّص، سابرا

[1]- في موقف مخلف لما هو سائد هناك من يرى أن التّأويل ظهر في الفكر الإسلاميّ على يد "الجعد بن درهم"، وتلميذه "جهم بن صفوان"، والجعد – كما أشار إلى ذلك علي سامي النّشّار – هو: « أوّل من خاض هذا المعترك العنيف، ونادى بفكرة التّأويل العقليّ وأوّل روّاد التّفسير العقليّ في الإسلام»، لينتشر بعدها التّأويل بين مختلف الفرق على درجات متفاوتة، فعلم الكلام هو علم التّأويل وكلّ الفرق مؤوّلة ولا فرق بينها إلّا في الدّرجة؛ بل كان التّأويل ضروريًّا، كما يصرّح بذلك الغزالي في كتابه فيصل التّفرقة بين الإسلام والزّندقة، قائلًا: « وما من فريق من أهل الإسلام إلّا وهو مضطر إليه » .علي سامي النّشار، نشأة الفكر الفلسفيّ في الإسلام، ج 1، دار المعارف، القاهرة، الطّبعة 9، ص 329 وما بعدها.

محاضرات مقياس:
فلسفة التأويل في العصور الوسطى

أغواره، فأتى هو الآخر بما لا يطيقه النَص، ولا يحتمله ولا يتحمله، كما هي الحال مع الشيعة الباطنية(الشيعة الإسماعلية)، التي شطت في آرائها بالمبالغة في التأويل من دون دلالة مطابقة، وهو ما يفيد إسناد الرأي بلا دليل صحيح، معتمدة التأويل المجازي، من دون ضوابط، ما عدا اثبات وجود إمام معصوم، وارث العلم السماوي، وورود النَّص عليه. ومن ذلك تأويلاتهم قولهم بأن عليا (رضي الله عنه) ولي كل مؤمن بعد الرسول صلى الله عليه وسلم، وولايته واجبة بالنص مصداقا لقوله تعالى﴿ يا أيُّها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وأن لم تفعل ما بلغت رسالته﴾. واستنادا إلى ما ورد في حديث الغدير[2]. ووصل بهم شطط التأويل حد جعل الإمامة ركن من أركان الدين وأنها واجبة بالنَّص.

ولا يذكر التأويل في الفكر الإسلامي إلا ويذكر "أرباب التأويل" و"أهل التوحيد" كما يسمون أنفسهم أي المعتزلة، فالمطلع على مدونات علم الكلام المعتزلي على اختلاف طبقاته سيجد أن التأويل هو قطب الرحى عندهم، وأنه السبيل المثلى لدرء تناقض العقل مع النقل؛ فإذا حدث تعارض وجب رفعه عن طريق تأويل النص الديني حتى يصير معقولا، بناء على مسلمة أساسية في مذهبهم ألا وهي: قدرة العقل على معرفة الله قبل ورود النَّص، وأن معرفة الله واجبة عقلا، ومتى استطاع الإنسان الاستدلال على معرفة الله عقلا تمكن من فهم دلالات النص. فالعقل هو الذي تخضع له عملية التأويل التي تحاول الافلات من سياج النص، وهو أيضا فيصل التفرقة بين إيمان راسخ وإيمان غير راسخ، يجد أساسه في العرف والتقليد والموروث. وهكذا عرف الفكر العربي الإسلامي الوسيطي مع المعتزلة توجها جديدا في التأويل العقلي للقرآن، وهو تأويل لغوي في جوهره.

ويذكر ابن تيمية أن تقسيم الألفاظ الدالة على معانيها إلى حقيقة ومجاز هو اصطلاح حادث، يقع في كلام المتأخرين، والغالب أنه من جهة المعتزلة ونحوهم من المتكلمين. والمعتزلة أنفسهم لا ينكرون ذلك، ولا يروون فيه شبهة أو نقيصة، بل المجاز اللغوي (وعناصره: الكناية، والتشبيه، والاستعارة،

---

[2]– **حديث الغدير**: هو الحديث الذي اتخذته الشيعة سندا بأحقية إمامة علي رضي الله عنه ومن تبعه من الأئمة الآخرين، وقد كان ذلك يوم خرج الرسول(ص) من مكة إلى المدينة، وفي الطريق نزل عليه الوحي في قوله تعالى يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وأن لم تفعل ما بلغت رسالته، وكان النبى(ص) عند غدير خم فجمع الناس في يوم شديد القيظ ودعا عليا إلى يمينه وخطب فقال: « لقد دعيت إلى ربي وغني مغادركم من هذه الدنيا، وإني تارك فكتاب الله وعترتي وأهل بيتي، ثم أخذ بيد علي ورفعها وقال: ألستم تعلمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟قالوا : بلى. قال : من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم والِ من ولاه ، و عادِ من عاداه».

محاضرات مقياس:
فلسفة التأويل في العصور الوسطى

والحذف) هو المنهج الأثير عندهم في فهم وتدبر القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، إذ يذكر القاضي عبد الجبار المعتزلي ما نصه:« إنه تعالى أراد أن يكون القرآن في أعلى طبقات الفصاحة ليكون علما دالا على صدق النبي صلى الله عليه وسلم. وعلم أن ذلك لا يتم بالحقائق المجردة، وأنه لابد من سلوك طريقة التجوز والاستعارة». وهذه الخصيصة تلزم اللسان العربي؛ فلئن كان أَبُو إِسْحَاقَ الإِسْفَرَايِيْنِيُّ(ت:418هـ) قد أنكر المجاز في لغة العرب، فإن المعتزلي ابن جني في كتابه الخصائص، يؤكد أن أكثر اللغة مجازا لا حقيقة، والأمر نفسه يؤكده عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الاعجاز، إذ يقر أن المجاز أبدا أبلغ من الحقيقة. وهكذا كان المجاز عند المعتزلة « أداة ناجعة في استعادة نضارة المعاني والدلالات التي كانت مهددة بالشحوب». وفقا لما يرى نصر حامد أبو زيد.

وبالتوافق مع المقتضى السابق، أي مركزية العقل، إذ هو الأساس الإبستمي لأصول مذهبهم وشرعية التأويل المجازي الذي يجد تسويغه اللساني لدى المعتزلة، في اعتبار المواضعة والاصطلاح أصلا للغة، وبالتبعية التأويل ليس إلا استجابة لقوانين المواضعة، أوَّل المعتزلة الآيات المتشابهات، فما « يتفق مع المفاهيم العقلية بدلالته اللغوية فهوم المحكم، وما يبدو متناقضا معها فهو المتشابه الغامض الذي لا سبيل لتقبل دلالته اللغوية المباشرة». واعتمدوا في ذلك على أمرين:

- ضرورة التفرقة بين المحكم والمتشابه
- رد المحكم إلى المتشابه باستخدام منهج التأويل المجازي.

ولقد صنف المعتزلة تفاسير على أصول مذهبهم، منها: تفسير عبد الرحمن بن كيسان الأصم(ت: هـ) المشهور بـ(تفسير أبي بكر الأصم)، وقد صفه القاضي عبد الجبار بأنه تفسير عجيب حسن، وذكر أن أبا علي الجبائي (ت:303هـ)لا يذكر أحداً في تفسيره إلا الأصم، التفسير الكبير للقاضي عبد الجبار المعتزلي، و« الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل» المعروف اختصارا بـ«الكشاف» للزمخشري(ت: 538هـ) نسبة إلى زمخشر وهي بلدة بخوارزم.

ويظهر استخدام المجاز اللغوي لدى المعتزلة في تصديهم لثنائية التنزيه والتشبيه، وهي الوجه الآخر لثنائية المحكم والمتشابه، إذ أوّلوا الآيات القرآنية الكريمات المتشابهات في إطار تصورهم للذات الإلهية

محاضرات مقياس:
فلسفة التأويل في العصور الوسطى

وكل ما يتعارض ومفهوم التوحيد، وما لا يليق ظاهرها بمقام الألوهية، ومن ذلك الآيات التي تدل على رؤية الله، والاستواء، وتشبه الله بالإنسان، أو تناقض العدل، أو توهم الجبر، أو فعل القبيح له إلخ.

وبالاتساق مع الأصل الأول في مذهبهم أي أصل التوحيد قرروا أن القرآن الكريم(كلام الله) مخلوق. ولما كان كلام الله في نظر المعتزلة هو ذات الله، فلا يمكن للقرآن أن يكون مُنزلاً لأن الله منزَّه عن خلقه ـ وفي هذا شرك به تعالى ـ وإنما القرآن « مخلوق مُحدَث في محل».

إن اعتماد المعتزلة لهذا المنهج والغُلوِّ في فيه، بل وسوء استخدامه أحيانا، كان سببا رئيسا في أن يناصبهم الخصوم العداء، وأن يكيلوا لهم التهم كالتعطيل، وأن يرموهم بالخروج عن الملة. لكن نصر حامد أبوز زيد يلتمس لهم العذر، ويرى في موقفهم النواة الصلبة لتأسيس التأويل العقلي في فهم النص الديني فالقرآن الكريم حين أشار إلى ضرورة رد المتشابه إلى المحكم، لم يحدد الآيات التي وصفها بالمحكمات ولا تلك التي سماها المتشابهات، كما لم يذكر المفهوم الصريح لكل من هذين المصطلحين، فكان من الطبيعي أن يعتبر المعتزلة كل ما يدعم وجهة نظرهم محكم يدل بظاهره، وكل ما يخلف هذه الوجهة متشابها يحق لهم تأويله ورده إلى المحكم.

2- التأويل عند المتصوفة

التأويل الصوفي أو التأويل الفيضي ويسمى أيضا التفسير الإشاري أو التفسير بالإشارة ، هو « هو تأويل آيات القرآن الكريم بغير ظاهره لإشارة خفية تظهر لأرباب السلوك والتصوف ويمكن الجمع بينها وبين الظاهر والمراد أيضا». وقد اختلف العلماء في جوازه.

- **طبيعة التأويل الصوفي**

يختلف التأويل الصوفي للقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة عن التأويل الفقهي، ذلك أن التصوف تجربة ذاتية وجدانية، أساسه العرفان والذوق وليس النقل، فـ« ليس من رأى بقلبه كمن سمع بأذنه». وهذا فرق أول. أما الفرق الثاني، فيتعلق بطبيعة العلم عندهم ومصدره؛ فإذا كان العلم عند الفقيه كسبيّ فهو عند المتصوف وهبيّ، لدنيّ. ولعل هذا ما قصده أبو اليزيد البسطامي لما كان يردد« أخذتم علمكم ميتا عن ميت، وأخذنا علما عن الحيّ الذي لا يموت». وهو علم يجد قراره المكين قلب العارف، الذي إذا ما

محاضرات مقياس:
فلسفة التأويل في العصور الوسطى

انكشفت له الأسرار وتجلت له الأنوار حتى يصبح من أهل حق اليقين. وهؤلاء هم أهل العرفان من اجتهدوا في عبادة الخالق فوصلوا عن طريق المجاهدة والعبادة إلى معرفة حقائق النَص المخفي وراء اللفظ، ووصلوا إلى هتك حُجب الظاهر.

وثمة فرق (ثالث) جوهري بينهما؛ فإذا كان التأويل الفقهي مقصده الأساس البيان والتفسير والتجلية فإن التأويل الصوفي مقصده الآسن الخفاء والتعمية، إنه يتعمد الاخفاء أكثر من الإظهار، والتعمية أكثر من الوضوح، كتما للأسرار. لذلك يوصي ابن عربي السالك بكتم الأسرار وحجب الأنوار، قائلا:« حافظ على العلوم اللّدنية، والأسرار الإلهية، وإيَّاك وافشاء سر الربوبية». وجدلية الخفاء والتجلي هذه، تكشف عن علاقة الفقيه والمتصوف ـ على حد سواء ـ بالسلطة وبالمجتمع، وإن كانت في الغالب الأعم ما تحسم لصالح الفقيه. وفي الحالات التي علا فيها صوت المتصوف بتآمر من السلطة كان الهدف منه تزييف وعي الناس والدهماء منهم على وجه الخصوص[3].

ويختلف التأويل الصوفي عن التأويل الفقهي، كونه يَندُّ عن منطق العقل الصارم، ويتحرر من سياج اللفظ والعبارة، فعوالم المتصوف الخفية ولئن كانت تسمح باتساع الرؤيا، إلا أنها في الذات الوقت تضيق الخناق على العبارة، فـ « كلما اتسعت الرؤيا ضاعت العبارة » فيما يقول محمد بن عبد الجبار النفّري(ت: 354هـ) في كتابه المواقف والمخاطبات.

- **مبادئ التأويل الصوفي وخصائصه**

أ/ أهم مبدأ في التأويل العرفاني أو الصوفي، هو استحالة التمييز بين الظاهر والباطن في الوصول إلى الحقيقة، معترضا في ذات الوقت على التأويل الفقهي المتمسك بالظاهر وعلى التأويل الكلامي المتمسك بالباطن. فالتأويل الصحيح، ومن خلاله الإيمان الصحيح هو حاصل الجمع بينهما، أو كما يقول ابن عربي مخاطبا السالك« اجمع بين الظاهر والباطن يتضح لك سرّ الراحل والقاطن».

[3]– وهو الدور الذي لعبه رجال الطرقية(وهم مؤسسة استعمارية) في عهد الاستدمار الفرنسي، لما أشاعوا بين الناس أن الاستعمار قضاء الله وقدره.

محاضرات مقياس:
فلسفة التأويل في العصور الوسطى

بـ/ الدور الفاعل للذات في عملية التأويل؛ فقد تتضاءل ذات العارف حد تصير معه الصورة الأصغر للعالم الأكبر، وقد تتسع حدا تبتلع في جوفها العالم الأكبر. وعن دور الذات، أنشد ابن عربي(ت: 638هـ) في كتابه: الاسرا في مقام الأسرى، قائلا:

وغص في بحر ذات الذات تبصر عجائب ما تبدت للعيـان
وأســـــرارا تراءت مبهمـــات مستترة بــأرواح المعاني

ج/ وأهم خاصية لهذا النوع من التأويل أنه تأويل مجازي (رمزي إشاري)

يلجأ الصوفي في التعبير عن تجربته إلى الإشارة والرمز إما لغرض تقريب الفهم للأدنى مقاما من الصوفية أنفسهم، أو المتعاطف معهم المسلم لعلومهم، أو بهدف صون الأسرار والحفاظ عليها، حتى لا يتخذها العذول المنكر لأحوالهم سلاحا للهجوم عليهم بالابتداع لمجرد عدم ادراكه لمقاصدهم. يقول أبو القاسم القشيري(ت: 465هـ):« وهذه الطائفة مستعملون ألفاظا فيما بينهم، قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم، والاجمال والستر على من باينهم في طريقهم؛ لتكون معاني ألفاظهم مستبهمة على الأجانب، غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها». فعلمهم إشارة فإذا صار عبارة خفي.

ويلجأ الصوفي إلى الترميز أيضا لأن اللغة في نظره تبقى عاجزة عن احتواء كل ما يقذفه الذوق في قلبه من معان و أسرار ودلالات، وقد ذكر أبو نصر عبد الله السراج الطوسي (ت: 378 هـ) في كتابه (اللمع في التصوف) معنى الرمز قائلًا: «الرمز معنى باطن مخزون تحت كلام ظاهر، لا يظفر به إلا أهله»، وهذا يعني أن عبارات الصوفية لها في الغالب معنيان، أحدهما: يستفاد من ظاهر الألفاظ. والآخر: يستفاد بالتحليل والتعمق. وهو المعنى الخفي.

وبالمحصلة، فإن الرمز عند الصوفية:

- معين لا ينضب في حفظ الأسرار والمكاشفات.
- معنى باطن مخزون تحت كلام ظاهر لا يظفر به إلا أهله.

ومن أمثلة تأويل المتصوفة للقرآن الكريم نتوقف عند قول الله تعالى ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ* إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ * قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ *

محاضرات مقياس:
فلسفة التأويل في العصور الوسطى

وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾. [سورة يس: الآيات 12–17]. فهذه الآيات وما تلاها لم تجئ حسب معناها الظاهر وهو الصحيح المُراد بلا ريب، إلا لتقصَّ علينا للعبرة والذكرى نبأ أصحاب القرية الخاطئة الضالة مع الرسل الثلاثة الذين أرسلهم الله إليها فكذبوهم، ولكنَّ المتصوفة تركوا هذا المعنى الظاهر وزعموا أنَّ لها معنى خفيًّا باطنيًّا، فرأوا أنَّ القرية ليست إلا الجسم، وأنَّ الرسل الثلاثة هم الروح والقلب والعقل، وهكذا أوَّلوها كلها تأويلًا مجازيًّا لا دليل ولا قرينة عليه.

ومن بين التفاسير الصوفية نذكر:

- كتاب حقائق التفسير لأبي عبد الرحمن السلمي النيسابوري، (ت:412هـ).
- تفسير محيي الدين بن عربي، (ت:638هـ).
- تأويلات القرآن، لعبد الرازق القاشي أو القاشاني السمرقندي، (ت: 887هـ).